بل .. أزمة الروح

عائشة رافع

اهداءات ٢٠٠٤

د / علياء رضاه رافع
القاهرة

عائشة رافع

بل أزمة الروح

دار صادق للنشر
ص. ب. ١٢٠، سيدى جابر
الإسكندرية

الطبعة الأولى
١٩٩٢

المحتويات

مقدمة

عاقنى كثيرا قبل أن أتخذ الخطوات الفعلية فى إخراج هذا الكتاب إلى النور .. أمران:

الأول هو إننى خشيت وأنا أخوض فى الحديث عن أمور تتعلق بالدين الإسلامى العظيم أن أكون على الأقل أمام نفسى كمن يعطى لنفسه حقا أكبر من حجمه.. أو يتطاول فى الحكم على أمور يجرؤ لفرط جهله على النطق بها وهو فى حضرة عالم عظيم..

والثانى هو إحساسى بأنَّ «الكلمة» على عظمتها .. صارت موضعا للوصف بأنها مجرد «كلمة» وما أكثر «الكلام».. حتى بتُّ فى كل أمورى أوثر الصمت على «الكلام» .. وأبحث عن الفعل دون «الكلام» وأخشى ما أخشى أن تكون حرفتى هى «الكلام».. فلا تلبس الأفكار والإنفعالات تتسلل من عقلى إلى الورق .. وتأمر القلم بأن يحررها من سجن ذاتى وكيانى الأوحد.. حتى يخيل إلىّ أنى قللت من شأنها بأن صارت «كلاما» وما أكثر الكلام! لا أستطيعُ أن أثق أننى وجدت حلا دائما لهذين النوعين من الإحساس.. لكنى

على الأقل وجدتنى أتعامل مع كـل منهمـا، بصورة أراحتنى مؤقتـاً

أولا.. إننى حين أتناول فى هذا الكتاب أىَّ أمر مـن أمـور الديـن الإسلامى فإننى لا أتناوله من منطلق الإدعاء بالتفقه فيه أو من ينسب نفسه لفئة «العلماء» أو المُلميَن بكل الإتجاهات فى العالم الإسلامى على مدى الزمان أو بإتساع المكان.. لكنى أتحدث فقط من موقعى وحجمى كإنسان مسلم عـادى لا يستطيـع إلا أن يكـون لـه إنفعـال بأمور دينه.. يفكر.. يشعر.. يحار.. يتأمل فى نفسه وفيمن حولـه.. يُقبل على شىء وينفر من آخر.. فلِمّ لا يشرك إخوانـه فى الإنسانيـة فى مشاعره وأفكاره ولكم نحن فى حاجة إلى التواصل أو التواصى.. وحين أنقد حال المسلمين فلا أتفوه بكلماتى من موقع علوى أعطى لنفسى الحـق فيـه فى أن أصدر أحكامـا على آخريـن أنفصل عنهـم ولكنى أحدثهم بما أحدث به نفسى ليل نهار خوفا ورهبا.. وأنتظر كلمات هـؤلاء أخـوة وأحبـاب طالمـا أحب الجميـع الحـق وأحب الجميع أن يكونوا منتمين حقا وفعلا وقلبا وعقلا ووجدانـا إلى ديـن الفطرة.. فما المانع أن يتسع لى أخـوة مسلمـون؟ فـلأكتب.

ثانيا.. للكلمة قدسيتها.. مهمـا كـانت موضعـا لعبث العابثيـن أو عنوانا لجاهلين.. أو يقوّلها نفر من الخامليـن المتكاسليـن.. سيظـل هناك فرق بين «كلمة» و «كلمة» بنفس قـدر الفـرق بيـن «إنسان» و «إنسان» على قدر ما بكل منهما مـن صفـات نقيـة أو خبيثـة..

فليكـن جهـدى إذن وإتجـاهى لا لـرفض «الكلمـة» وخصامهمـا ولكن للسعى إلى إكتساب ملامحهـا.. وإعـلاء قدرِهـا بنفس القـدر الذى أتمنى أن تكون عليه الأفكار والمعانى التى تعكسهـا الكلمـة.. والأفكار والمعانى لن تكون إلا بقدر صاحبها . الكلمة حق للجميع طالما أنَّ الله لم يحـرم إنسانـا مهمـا كـانت ضآلتـه فى القـدرة على التعبير..

وطالمـا إننى أدعـو كـل إنسان بقـدرِه إلى أن يفكـر ويعبـر عـن تفكيرِه وأن يستمع لمشاعرِه وأن يوصلّها لمن حولـه فلمـاذا لا أبـدأ بنفسى!.. فإن الإنسان إذا لم يعرف كيف يخلـق حـوارا بينـه وبيـن نفسه .. فكيف يعرف أن يستمـع إلى الآخريـن أو يتـواصل معهـم؟ ولكم نحن بحاجة إلى الحوار.. فوجدتنى أحدثك!. وأنتظر «كلمتك».

○ ○ ○

هذا الكتاب لماذا ؟

إننا.. هذه الأمة الإسلامية فى فترة حرجة من التاريخ.. أفرادها صرعى بين تيارين يُظن أنهما طرفا نقيض وهما فى الحقيقة وجهان لعملة واحدة وأقصد بها الإنغلاق من جانب و«التغرب» من جانب آخر.. فكل وجه منهما بتداعياته المختلفة هو «هروب» من الواقع.. من يقولون بالأصولية يهربون إلى ما يظنونه «الماضى».. ومن ينادون باللحاق بحضارة الغرب يهربون إلى ما يظنونه الخلاص من الجهل والتخلف.. وكل له أسبابه ومنطقه.. أمّا من يطلق عليهم لفظ المسلمين المعتدلين فصوتهم أقل تأثيرا من هذه الفئة وتلك.. ونحن بحاجة إلى دعم موقف الإتزان والإستواء بلا أىَ تنازل عن قيم الدين الإسلامى وبلا تخلف عن ركب الحضارة الإنسانية وما وصلت إليه من تقدم علمى فى جميع الإتجاهات..

إن الإتزان الذى أبغى أن أظهره من خلال هذا الكتاب هو هدف للإنسان المسلم السوى الذى تتصالح فيه وتتضافر قيم الدين دون رفض للتفكير العلمى ولا يتصارع داخله الماضى مع المستقبل..

لأنه هو بعقله وقلبه الواعيين يتفاعل معهما ويبدع تفاعله فى صورة عمل منتج.. فيه صالحه والصالح العام لا يتناقضان..

ومن أجل أن يكون الإنسان المسلم أهلا لهذا الإستواء.. وليكون كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. ولا تعصف به الرياح من هنا أو هناك فهو يحتاج إلى القوة.. والقوة تأتى من إحساسه بأنه يعرف طريقه وطريق المسلم هو دوما الإتجاه إلى ما هو أحسن معنويا وماديا.. والأحسن هو العلم والعمل والإرتقاء معنويا.. وهذا موجود فى ديننا بوضوح ولكن الفرضية التى يتضمنها هذا الكتاب هو أن شيئا ما.. أو أشياء حالت دون إستفادة المسلمين من تعاليم ديننا الحنيف.. وإننا نحتاج إلى «تجديد» علاقتنا بديننا.. ليس من خلال دروس تأتى إلينا من خارجنا أى من «رجل الدين» فحسب وإنما من إحياء روح الدين داخلنا نحن.. بالحوار والتساؤل والحيرة والتفكير وتبادل التفكر والتدبر.. نريد أن تكون معانى الدين وقضاياه جزءا من سلوكنا وحياتنا وعملنا لا إنفصال بينهما.. وحتى يتم ذلك نحن الأفراد المسلمين نحتاج إلى التحرر من مفاهيم كثيرة شائعة تقيدُ تفكيرنا وتجعل من الدين «غريبا» علينا أو «مفروضا» من خارجنا..

وهذه المفاهيم المجمدة إنقسم الناس إزاءها إلى فريقين.. فريق أسرف فى التجمد حتى وصل إلى ذروته.. وفريق آثر الفكاك بالتنصل من الدين تماما والإتجاه إلى «حرية» الغرب..

وكلمة الحق والشهادة التى لا أحب أن أكتمها ولا يكتمها أحد هى أن يدلو كل إنسان بدلوه فيما نمر فيه فى تلك الفترة الحرجة.. وعلى قدر علمى وإيمانى أرى فى ديننا الكريم كل جميل.. وكل تقدم.. وكل مخرج من المهالك.. ولكن كيف نقرأه من جديد؟! وكيف يوجد لدينا حتى الدافع لقراءته؟! فى هذا الكتاب لمحة من الدعوة لذلك.. وفيهِ مع أفكار متعددة تتردد بيننا فى هذه الفترة — نبتة لهوية إسلامية تحفظ كرامتنا وتدعونا لأن نجد لأنفسنا فى هذا العالم المتصارع طريقا سويا.. أصيلا.. منيراً.. يدعو إليه كل من أحب الله ورسوله وإنعكس حبه فى كلمة صادقة.. وفعل خيّر.. وعلم نافع..

○ ○ ○

أمتى . . أمتى !

كشفت الأيام والشهور الأخيرة عن كل ما هو مستور وكان مستورا من وهن وضعف الأمة التى تحمل عنوان «الأمة الإسلامية».. وراح علماء المسلمين ومفكروهم يجمعون على أنها تعانى من مرض خطير ذهبوا فى تشخيصه مذاهب شتى.. لكن أعراض المرض ظاهرة للجميع.. تستصرخ المسلمين.. هل من منقذ؟

فيصف أحد العلماء البارزين وهو الشيخ محمد الغزالى الأمة الإسلامية بأنها صارت «حضاريا وخلقيا وإجتماعيا آخر أهل الأرض فى سلم الإرتقاء البشرى» ويقول فى كتابه «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل»:

«شعرت أن مستقبل الإسلام فى مهب الريح إذا بقى الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية على النحو الذى ينشره بعض العلماء!! إن الإسلام سيحكم عليه بالطرد من كل ميدان إذا بقى مصورره يبرزونه فى تلك المعالم القبيحة التى لا يعرف غيرها الدهماء من المنتسبين إلى الإسلام».

وأصبح حال المسلمين حاليا محل إنتقادٍ من داخلهم قبل خارجهم – فيكتب الإمام الأكبر للجامع الأزهر فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق فى مقال بجريدة الأهرام (١٣ يوليو ١٩٩١): «صار بأس المسلمين بينهم شديدا.. وإنساق هؤلاء وأولئك حتى صاروا وقودا للحرب وإمعات للفتن.. وكل يدعى أنه يعمل للإسلام وبالإسلام وما هم فى هذا وذاك فى شيء.. وإلا فليكف أولئك المتنازعون فى الجزائر وغيرها من بلاد الإسلام عما وقعوا فيه وليذكروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

ومع الحديث الشريف وجدتنى أتذكر كلمات الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو يخاطب قومه أيام الفتنة الكبرى: «وإعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أغرابا وبعد الموالاة أحزابا ما تتعلقون من الإسلام إلا بإسمة ولاتعرفون من الإيمان إلا رسمه» وفى قول آخر لإمام المتقين «وإنه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل.. ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله.. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته.. ولا أنفق منه (أروج) إذا حُرَف عن مواضعه.. فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس.. وليس فيهم.. ومعهم.. وليس معهم».

وتساءلت ترى هل يتحدث الإمام علىّ عن زماننا الذى قرأ

بحكمته إرهاصاته فى زمانـه هـو؟

عموما.. الجميعُ الآن يقر بمـا وصلت إليـه الأمـة مـن تخلـف.. ويجمع أيضا.. ويجمع بحق أنَّ هذا التخلف ينافى شكلا وموضوعا كل ما جاءت به تعاليم ديننا الحنيـف وهـو الـذى يدعـو إلى عكس ما وصلنا إليه تماما.. وكيف لا.. وهو الأكثر حثا على طلب العلـم والمعرفة.. وعلى العمل والإجتهاد والإتقان.. وعلى الخير والتحـاب والعدل والسلام والجمال والإيثار.. وكل ما يملأ أرجاء هذا الكـون من أقصاه إلى أقصاه من فضائل الدنيـا والديـن..

إذا كان هناك إجماع على هاتيـن الحقيقتيـن أى مـا وصلنـا إليـه من تخلف.. وأنَّ جوهر الدين منها براء - فمـا أحوجنـا إلى معرفـة العلة الأساسية التى بُذرت فينا وترعـرعت نحـن أبنـاء هـذه الأمـه.. والداء الذى إستفحل فى كيانها عبـر السنـوات..

والأقسى والأمر أنها لم تكتـف بعـدم الإستفـادة ممـا لديهـا مـن تعاليم الدين بل إنها تستعمله ذريعة وحجـة لإتبـاع أساليب وسلـوك هى بعينها التى أُوصلت إلى مـا هى فيـه مـن محنـة أو نكبـة.. حتى أن وصل إختلاط الأمور فى الفترة الأخيرة التى سمَّاها البعض «الفتنة الكبرى الثانية» أن يكون التناحر بين فريقيـن يـدّعى كـل منهمـا أنـه المدافع عن الإسلام وكل منهما أنه فى جهاد مقدس.. وكل منهمـا له مُفتوه ومُفكروه.. يستنفرون المسلمين لجهادهم المقدس!! ووقف

فريق ثالث لا يعرف حتى أن يجيب: هل كان الحق.. كل الحق.. فى جانب أىَ من الفريقين؟

«لماذا لم تستفد الأمة الإسلامية من دينها حتى بات واقعها أمام نفسها وأمام العالم مخالف تماما لحقيقة الدين وجوهره؟»

أرى فى التوصل إلى جواب على هذا التساؤل مفتاحا لعلتنا.. وبالتالى أول خطوة نحو العلاج.. ولا تكفى الإجابة البسيطة والدعوة القائلة: هيا نعمل بتعاليم ديننا.. هيا نتذكر أنه يقول.. ويقول.. فالملايين يا سيدى تحفظ التعاليم والآيات والأحاديث عن ظهر قلب.. والمساجد ممتلئة بالمصلين.. والكعبة المشرفة لا تخلو ليل نهار من الطائفين.. ولا يغير ذلك من الأمر شيئا.. بل إن هذا الأمر فى حد ذاته هو المدعاة للتساؤل:.. لماذا وصلت هذه الأمة لهذا الحال.. وهؤلاء الملايين يملؤن المساجد؟ إن الإجابة تحتاج لجهد الكثيرين الصادقين.. وعملا بما أدعو إليه الجميع.. أبدأ بنفسى فأقول إن قراءتى الأولية فى حالنا كمسلمين تقول بأن العلة هى أنها «أزمة الروح»..

لأن كتابنا الكريم وسنة رسولنا الكريم محافظ عليها.. المناسك كأشكال للعبادات تتناقل عبر الأجيال.. وتنتشر بين سكان هذه الأرض.. شرقا وغربا.. أعداد المسلمين تزداد.. وتزداد.. ولكن.. ولكن.. هو جسد بلا روح.

فقد صار المسلمون ينشغلون بأشكالٍ وقوالب يصبُّون فيها أنفسهم دون وعى بأن الهدف لكل شكل هو التعبير عن معنى.. عن خلجة للروح.. نسى المسلمون أوتناسوا أن هذه الروح بين الضلوع هى التى تطلب غذاءها من المعانى الكريمة وتسعدُ بها.. وصار الدين يتعامل معه كأوامر ونواهى تفرض من الخارج.. وليس علينا إلا التنفيذ.. تنفيذ الشكل.. حتى لكأن المسلم لا يحتاج من الدين إلا أن يخبره عن طول الجلباب.. وإطلاق اللحية.. وحلق الشارب.. أو دم البعوضة!

إنها «أزمة الروح» التى تجعل المسلمين حتى وهم محاولون التأسِّ برسولنا الكريم ينشغلون بما كان عليه من أمر ملبسه ومأكله والشكل الظاهرى لعاداته وتصرفاته.. وأعجب لماذا لا يكون الإنشغال بمحاولة إدراك وطلب المعانى والقيم الروحية التى جعلت منه بشرا أفضل من كل البشر؟ وأكمل خلق الله كلهم.. أراد لأمته كل الرقى وقال «إن ما أعطيته فلأمتى» ماذا أخذنا أو إكتسبنا ممن كان خُلقه القرآن؟! وكيف وصلنا إلى ما نحن فيه وقد قال لنا «تركت فيكم ما لا تضلون به من بعدى أبدا.. كتاب الله وسنتى»؟

إننى على هذه الصفحات التى أنثر فيها جانبا من قراءتى.. تأملى.. لا أقول إننى أصل إلى نتائج وتعليلات مؤكدة.. ولكنها دعوة للمشاركة فى التفكير وفى التأمل.. وإذا كان هناك من يتفق معى فى أنها حقا «أزمة الروح».. فلماذا لا نجتهد لنعرف ونبحث

عمن قتل الروح.. على مـدى التاريـخ.. والآن؟

بداية وعلى قدر إجتهادى أقول إننا بحاجةٍ إلى أن نخلق «تعامـلا بكرا» مع ما هو مقدم فى هذا الدين.. نحاول أن نجعل مـن أنفسنـا إنسانا حر العقل والإرادة فى رؤية والإحساس بكل ما هو فى كتابنا الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم كما جاءت كحقائق.. وليس من خلال أسوار حديدية قوامها إجتهادات السلف والمعاصرين – مع كل إحترام لعلمهم والأخـذ بـه مـن منظـور التـواصى بالحـق ولكن لا يقلـل مـن شأن أحدِهـم أن يقبـل أو يـرفض فكـره.. لأننـا نريد أن نكون إنسانا يستهدف لنفسه تربية حاسة التذوق والتمييـز.. ولا يتعامل بالتـالى مـع المفاهيـم الموروثـة.. والمنقولـة.. والشائعـة وكأنها «منزلّة» لا يملك حيالهـا إلا القبـول..

لأنّ هذا التعامل مع ما تناقل من السلف.. جيل بعد جيل.. ومـع ما يقدمه الكثيرون حاليا تحت لواء الإسلام.. هو الذى شكّـل بيننـا صورا راسخة لا تقلُّ بحال مـا عمّـا حـدث فى عصر الجاهليـة:

صنع الناس الأصنام قائلين إنهم مـا صنعوهـا إلا لتقربهـم إلى الله زلفى.. وتتالت الأجيال لتتحول التماثيـل والأوثـان مـن رمـوز للإلـه إلى آلهة.. عبدوها.. ونسوا الإلـه!

○ ○ ○

نحن .. والكتاب

أذهلتني كلمات محدثتي.. هذه السيدة من أعلى الطبقات الثقافية في مصر.. تقرأ في الأدب والفكر والدين وتستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية وتذهب إلى الأوبرا في البلاد الأوروبية والأمريكية.. فإذا بها ونحن نتحدث عن معاني القرآن الكريم تشيرُ إلى التفسيرات المختلفة التي نقرأها في المصحف الشريف وهي تعتقد أنها شرح قاطع نهائي للمعاني القدسية وكأننا مثلا نتعامل مع أحد معاجم اللغات حين لا نعرف كلمة ما نرجع إليها فنطلع على المعنى ونحيط به وينتهي الأمر..

ذهلت محدثتي وأنا أقول لها إن هذه التفسيرات المدونة هي إجتهادات وتأملات لعلماء أفاضل عبر التاريخ وضعت كعلم إستشاري.. حكمة من علماء يصح أن يستضيء بها طالب الحكمة..

لكن معاني القرآن الكريم منزهة عن الإحاطة بها وستظل دائما وأبدا أغنى من إحاطة البشر تصل بركاتها ويلمس نورها المطهرين قلوبهم..

وذهبت أقول لها إن حديثها إن صح فى جزء من المعانى الكريمة – وإن كان أيضا بشكل غير مجمد – فإنه يصح على بعض الآيات التى تشير إلى حقوق المعاملات فى الميراث والزواج والطلاق.. وحتى هذه الآيات تعطى أساسا واضحا فى التعامل ولكنها تبقى روح النص هى التى تتيح للعلماء القياس فى بعض القضايا التى لم يرد فيها نص..

وهذا هو السر فى أنَّ كتابنا الكريم سيظل دائما وأبدا فوق الزمان والمكان.. ولكنى يا سيدتى أتحدث عن الآيات التى تتطرق للمعانى والحقائق الكونية.. وحال الإنسان.. والأرض.. والسماء.. والعالم الآخر.. هذه كلها أو معظمها تعبيرات إشارية لا يحق لبشر أن يدعى الإلمام بمعانيها..

وضربت لها مثلا بآيات متعددة خطرت على ذهنى عفوا ونحن نتحدث.. فقلت لها إنَّ الآيات الأولى فى سورة «النازعات» مثلا وهى «والنازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا، فالمدبرات أمرا» ذهب كبار المفسرين مثل الطبرى والقرطبى والألوس وإبن كثير وإبن عباس وغيرهم فى تفسيرها مذاهب شتى فقيل إنها الملائكة.. وقال آخرون لعلها النجوم.. وقيل الرياح.. وقيل الخيل.. وذهب البعض إلى أن «النازعات» هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار.. وقد قرأت لأحد رجال الله الصالحين مؤخرا تأملا فى هذه السورة يقول – على عكس

التفسير السابق تماما – قد تكون النفس التى تنزع إلى الحق وتجد أن الحق بحر لجُى يغرق فيه الإنسان.. فتنشط طلبا له.. وتسبح فيه.. وتتسابق رغبا ورهبا..

وتلاحقت فى ذهنى آيات وآيات.. لا أعرف كيف تسارعت وقفزت إلى لسانى وأنا أتحدث إلى هذه السيدة.. أقول لها عن آيات تأملت فيها وحرت كثيرا.. منها إستخدام لفظ «كلمة» و«كلمات».. فها هى الآية ١٧١ من سورة النساء «إنما المسيح عيسى إبن مريم رسول الله وكلمته».. كيف يكون الإنسان نفسه كلمة؟ كلمة لله؟ ثم فى سورة الكهف آيه ١٠٩ «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدادا» ما هى كلمات ربى؟ هل هى الإنسان.. قياسا على وصف عيسى بأنه كلمة؟ هل هى كلمات القرآن؟ وكيف لا تنفذ ونحن نعرف أنها لو كانت «الكلمات» يعنى «الألفاظ» لحصرناها وهى المحددة المعينة؟

قد نفهم أن «الكلمات» هى الحكمة.. ولكن الأمر على كل حال ليس مغلقا.. وقد ذكر اللفظ «كلمات» فى مواضع شتى بمعان بالغة الثراء.. فقيل فى سورة البقرة آية ١٢٤ «وإذا إبتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين».. «الكلمات هنا فهم أنها «قول» الله تعالى أو «حديثه» لإبراهيم الخليل كيفما أراد جل جلاله أن يوصله

إليه.. فكل آية وردت فيها «كلمة» أو «كلمات» ستجد بها من المعاني الكثير وليس الأمر مجرد بلاغة لغوية.. بقدر ما تحمل الكلمة من دلالات معنوية..

إمتد الحديث وأنا أقول للسيدة التى بدا إنها تستمعُ إلى شىء لأول مرة.. إن أبسط الألفاظ التى ترد فى كتابنا الكريم لا تنضب من المعانى العميقة المدعاة للتأمل.. فها هى كلمة «يسجد» فى الآية ١٨ من سورة الحج «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن له فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء».. كلمة «يسجد» هذه قيل فيها «تسجد ظلالهم» وقيل السجود بمعنى الطاعة.. ونحن نعرف السجود بمعنى الحركة المعينة التى نؤتيها فى الصلاة.. ولكنى فى النهاية أتساءل ما هو المعنى الذى يربط بين الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب.. ثم كثير من الناس.. وإذا كانت الطاعة فهل تدخل فيها هنا الإرادة؟ قد يطيع الإنسان أولا يطيع ولكن هل تفعل مظاهر الطبيعة ذلك أيضا؟ أم أن «السجود» كمعنى تشترك فيه كل هذه المخلوقات.. معنى يستحق مزيدا من التدبر؟

فى سورة النور آية ٤١ «ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحة والله عليم بما يفعلون».. ما معنى الصلاة والتسبيح هنا؟ وكيف يصلى من فى

الكون؟ وهل تقتصر الصلاة على الصورة التى أمرنا بها أم أنَّ كلمة «صلاة» أوسع فى معناها.. وأغنى من إرتباطها فى الأذهان بالقيام بحركات جسدية معينة وفى صورة محددة؟ قد نفهم أن هناك معنى قائما فى الكون إسمه «صلاة» يمارس من قبل كل المخلوقات فى هذا الكون ومنها الإنسان.. آيات.. وأيات لا يمل الإنسان من سياقها.. كلُّها تقول إن معانى الكتاب الكريم لا يمكن أن تحدَّ أو يعطى كائن من كان لنفسه الحق فى أن يقول «إنها تعنى كذا وكذا» بالقطع.. وربما هذا ما يجعل الفقهاء دوما يقولون فى نهاية حديثهم «والله أعلم».. فهذه قولة حق.. لأنَّ كل إنسان يقولُ ما يفتح الله عليه بإجتهاده وتدبره وبما تسمح به المعانى اللغوية للألفاظ.. لكن فى النهاية إن الله وحده هو الذى يعلم.. ومبلغ غاية الإنسان أن يمن الله عليه بالعلم الحق..

تركت السيدة وسؤال يلح على عقلى يؤرقه.. من أين جاء الإنطباع عند الناس بأن معانى القرآن محدودة فيما نقل من تفسيرات حتى أن الكثيرين لا يحاولون أن يتأملوا فى الآيات بالأمل والطمع فى الله أن يفتح عليهم دوما بمعان جديدة؟

أعترف أننى فى محادثات تلت مع بعض الأصدقاء والمعارف حاولت أن أستطلع هل يوجد من يفكر مثل هذه السيده؟

إكتشفت أن هناك الكثيرين.. ووجدت أن حتى الذين يؤمنون

ويقدرون المفهوم القائل بأن المعانى الكريمة لا تحد ولا تحصر.. فهم يقبلون ذلك كمعلومة فكرية.. لكنهم فى النهاية.. يكتفون فى تعاملهم مع الكتاب الكريم بإستطلاع المعانى من المتاح لهم من تفسيرات ويكتفون به.. ولا يرون منطلق القراءة بأنهم هم أنفسهم يمهدون سرائرهم لتلقى معانى قد يفتح الله بها عليهم من خلال التواصل مع عالم الكتاب الكريم بكل قدسيته وجلاله التى يفيض الله منها على عباده المتقين.. تعاملهم مع المعانى.. أراه تعاملا بلا روح.. لأنَّ قارىء الكتاب يفرض على نفسه سياجا من وصاية التفسيرات المتاحة التى يكبل بها نفسه وينس أنها ليست أكثر من نوعٍ من التأمل لبشرٍ آخرين وعلم وتواصى دون فرض.. أوقصر.. أوقهر أو إحتكار؟!

لست بحال ما فى موضع الجدل عمن يحق له أو لا يحق تفسير القرآن الكريم.. كعلم متخصص.. لكنى أتحدث عن علاقة أى مسلم بكل درجاته من العلم والمعرفة مع «كتاب» أرسل للناس كافة.. لماذا خلت الروح من هذه العلاقة؟ لماذا سلب الإنسان نفسه حق الإحساس بأنه يستطيع أن يكون مستقبلا للمعانى الكريمة اللانهائية.. دون وصاية من أحد.. فقط حين يعد هو نفسه لهذا الإستقبال.. بإيمانه بأن الله يقول له فى كل حرف الكثير والكثير..

فإن بدت الآيات وكأنها لغة من لغات البشر إلا أن قدسيتها تنبع من أنها حديث الله للبشر يدعوهم فيه إلى عالم من الطهر

والنور.. تستخدم فيها الألفاظ كرموز للمعانى العلوية.. وعلى كل إنسان أن يسعى بنفسه.. بقدراته.. وطوال عمره لأن يتعلم لغة الحق ليفهم رسالة الحق إليه..

صار الكتاب بيننا مثله مثل كل تعاليم الدين شكلا.. ورسما.. ولفظا.. بلا روح.. نحفظه في ورقات.. ونردد آياته بألسنتنا كألفاظ.. ولا زلت أبحث عمن قتل الروح.

○ ○ ○

كانوا يقرأون القــرآن!

فهل نقرأه نحــن؟

ها هو عالم مراقب لأحوال المسلمين وهو الشيخ محمد الغزالى يقول فى كتابه «تراثنـا الفكـرى فى ميـزان الشرع والعقـل» : «إننى أجزم بأن فلسفة الكون فى القرآن الكريم بعيدة جداً عن أفهام قرائـه وأن جمهرة المسلمين لا تسمع من هدير الآيـات شيئا طائـلا، فهـم «كمثل الذى ينعق بما لا يسمـع إلا دعـاء نداء..».

تنتقد يا سيـدى وأنتقـد وينتقـدون حـال الأمـة الإسلاميـة فأعـود وأقول إننا بحاجة إلى الإجابة عن هذه التساؤلات.. لماذا لم يستفـد المسلمون من دينهم ومن كتابهم؟ هل إذا عدنا للبدايـة نستطيـع أن نعرف من قتل الـروح؟

فى محاولة لتلمس تعامل المسلمين الأوائل مع الآيات الكريمة.. نستشعر أن المسلمين وهم على فطرة الدعوة ما كانوا ينظـرون إلى هذا الكتاب ككلمات مرصوصة بل كانوا يتعاملون مع الآيـات التى

كانت موزعة هنا وهناك بين حفظة القرآن - قبل قرار جمعه وبعد جمعه أيضا فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب (ر) - بإعتبار قراءتها «ذكرا» و «تعبدا» يستفيدون منه بقدر ما يصدق كل منهم فى أن يكون أهلا بصفائه لأن تُحيى الكلمات الكريمة قلبه وتطهر روحه وتأخذه إلى عالم الطهر والنور..

كانت القلوب تهتز لسماع القرآن بقدر ما يكون القارىء له متواصلا بقراءته مع هذا العالم العلوى.. فإن كان المستمع مؤمنا يزداد إيمانا وعلوا.. وإن كان مؤهلا لأن ينشرح قلبه للإيمان إنجذب لقوة هذا النور المتدفق من «روح» القارىء لا لسانه.. وإنضم لصفوف المسلمين.. وإن كان ممن غلبت عليه قوى الجهل والظلام.. فر هاربا.. منزعجا.. شاعراً بهذه القوة التى يخشى على نفسه منها.. السر وراء هذه القوة لم تكن الكلمات كألفاظ صمّاء.. ولكن كانت مرتبطة بإيمان الشخص القارىء والمتواصل مع عالم القرآن الحقى..

لم تكن هذه القوة خافية أو نادرة.. بل ظاهرة وسائدة حتى قيل إنَّ محمد ﷺ كان ساحرا.. وكيف كان يمكن لكافرٍ مظلم الروح أن يفهم شيئا آخر وقد رأى كلمات يتفوه بها الرسول ﷺ تفعل فى الناس فعل السحر.؟ وتقلبهم من حال إلى حال؟

تاريخ الإسلام ملىء بالأمثلة حول قوة الآيات وما تفعله بالآخرين

(إسلام عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ وغيرهم)

حث الله تعالى ورسوله الكريم جميع المؤمنين على تلاوته وحفظه وترتيله.. وتدبر آياته والتعبد به وكان المسلمون جميعا يجتهدون فى تفسير الآيات ويشجعهم الرسول على ذلك.

وربما يكون أكبر دليل على أن ثراء الآيات الكريمة وعدم حصرها فى معان محددة كان هو الفهم السائد والبديهى لدى جميع الأمة.. هو وجود هذا العدد الهائل من المفسرين والمجتهدين فى العقود الأولى من بدء الدعوة.. وربما حتى القرون الخمس الأوائل..

إذن كان «التعامل الروحى» مع الكتاب الكريم هو الأصل.. وكان الإعتراف بلا نهائية المعرفة فى معانيه ومحاولة الأخذ والإنتفاع بلا حدود هو الأصل.. وكانت محاولة كل إنسان لرقى به.. وتواصل مع العالم اللامادى هى الأصل.. وكان الحق لكل إنسان أن يفهم ويفهم ما يجود الله به عليه بقدر إجتهاده وكدَه هو الأصل.. فأين نبتت بذور التجمد؟

كما أنها طبيعة الإنسان – فيما يبدو – أن يستعمل كلمة الحق يريد بها باطلا فقد إستغل أعداء الإسلام أثناء الفتوحات والإختلاط بالأمم المختلفة ثراء المعانى فى القرآن الكريم فى تأويل الآيات بما يبدو متفقا مع أهوائهم المغرضة.. وخاف علماء المسلمين من

المفاهيم المدسوسة أن تنتشر بين الأمـم فمنعت الإجتهـادات وصار التركيز على مـا يسمى «الفهـم الكـلامى للقـرآن» أى تأييـد الوجهـه البسيطة الظاهرة للكلمـات.

ومع إتساع مطالب الحياة وإزدهار مدنيـة العـرب ووجـود أمـور لم تكن موجودة فى عصر الرسول نشأ علم «أصول الفقه» والتفاسير التى تعنى بالأحكام الشرعية لتنظيـم حيـاة المسلميـن.. كمـا نشأت علوم البيان والمعانى.. والبديـع.. والبلاغـة.. وأحكـام اللغـة لحفـظ القرآن الكريم من إضطـراب اللسان العـربى.

وشهد العصر الحالى مـا يسميـة البعض بالتفسيـر العلمى للقـرآن الكريم وهو التأمل فى آيـات تكشف عـن حقائـق علميـة كثيـرة لـم تكن معروفة أثناء نزول القرآن قبل أربعة عشر قرنا ومنهـا مـا يذكـر دائما عن علم الفلك.. والأرض.. والأجنـة.. إلـخ.

ومع كل الإتجاهات التى نشأت فى تعامل المسلمين مع كتابهـم الكريـم بقى فريـق مـن الزهـاد أو المتصوفـة يدركـون أن الجـانب الروحى قد أهمل.. وذهبوا يدونون تأملاتهم وفهمهـم الشخصى فى كتب عرفت فيما بعد بالتفسير الصوفى للقرآن.. وظل هؤلاء مدركين ومؤمنين ومتعاملين مع كتاب الله ليس كمجرد ألفاظ.. وليس فقـط مصدرا للتشريع.. ولكن أساسا للحياة نفسها.. حين ينظر إليه ويتجه إليه كوجود حقى حىَ به من الحقائـق والمعـانى والنـور مـالا نهايـة

له.. ويعطى كل طالب من نوره وعلمه على قدر قدرة هذا الطالب لإستقبال نفحاته.. قدرة تتزايد كل يوم لأن وجود هذه العلاقة الحية المتقدة دوما بين الإنسان والكتاب تخلق له هدفا واضحا نصب عينيه وهو أنه كلما ترقى درجة فى طريق الصفاء والصدق والنور كلمّا فهم أكثر.. ورقّ أكثر.. وصفا.. وإرتوى وعاد إنسانا أفضل.. دائما أفضل.. لأنه بكل حصيلة سيداوم على الطلب فيعطى قدرا أكبر.. يرقيه أكثر.. فيكون أفضل.. ويعود فيطلب بلا إنقطاع.. والآن وأنا أستعرض أمام عينى.. ومعك.. هذه النبذة المختصرة جداً عن تعامل المسلمين مع كتابهم الكريم منذ نزوله على رسولنا العظيم وحتى ما وصلنا إليه.. كان هدفى هو البحث فى التاريخ عمّن قتل الروح فى أمتنا الإسلامية.. وإنتهى بها إلى جسد مسجى تحسبه مليئا بالحياه.. فتجده يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وأحسبنى أرى الطلقة الأولى من السلاح الذى ارتكبت به جناية القتل قد خرجت حين صار القرار الذى يكتفى فيه بالتفسير الكلامى للقرآن قاعدة وليس إستثناءاً فصار معه الحجر على الفكر قاعدة.. ترسخت مع مرور الوقت.. ليصبح مجموع ما توصل إليه السلف على مدى خمسة قرون سياجا فكريا أطبق على أنفاس الأمة فخنقها..

وتوالت الطلقات من جيل بعد جيل.. تهدر إحساس الإنسان بأنّ له عقلا حرا.. وقلبا.. وروحا.. كلها مكلفة بالعمل.. بالتفكير.. بالإحساس.. بل وبالحياة.. فحين تعطلت.. يبست.. وشُلّت.

إن الحديث عمَّا وصلت إليه العلاقة بين الإنسان وبين كتاب الله.. من حيث فقدان الروح.. لا يعنى أن العلوم الفقهية واللغوية والبلاغية التى نشأت هى فى ذاتها محل إنتقاد.. بالعكس إنها صورة حية لأنَّ كتابنا الكريم يأخذ منه كل إنسان ما يحب لنفعه وما ينفع به الآخرين..

ولكن الإعتراض هو أنْ نقف عند ما أخذه إنسان ما أو مجموعة من الناس ونقول هذا يكفى.. فما دمنا أحياء فسنأخذ من القرآن إلى الأبد لأنه يعطينا كما نحتاج وكما نجتهد.. وإحتياجاتنا متجددة دوما.. على مستوى الفرد.. وعلى مستوى المجموع.. والعطاء مرهون بإجتهادِنا..

فكيف يعقل أن نقول كفى وما لدينا هو نتاج فكر أفراد عاشوا فترة من الزمان كان لها معطياتها وظروفها.. نستفيد من نقائهم وعلمهم.. ونضيف إليه.. نتفق.. ونختلف.. ونلغى.. ونؤكد.. ما جاؤا به.. ونتجدد نحن.. ونعطى.. ونضيف.. ويأتى من بعدنا متحررين مما قلنا يؤيدونه أو يرفضونه.. أو يختارون منه.. ويضيفون إليه.. لتبقى الحياة.. لتبقى الروح.. بلا وصاية من أحد على أحدٍ.. ولكن بتواص بالخير وبالحق.. وبرؤية الأحسن والأفضل.. كلٍ فى موقعه..

علماء الدين يقدمون لنا العلم وما يشق علينا.. علماء اللغة..

علماء أى فرع من فروع العلم إن كان بعلمهم ما يقرأون فيه من القرآن ما لايستطيع الفرد العادى أن يدركه فليقدموه لنا.. ما المانع؟.

ويبقى مع هؤلاء الإنسان بطبيعته البسيطه.. العابد الذاكر الذى يتلو القرآن ويتدبره بهدف العبادة.. أو بالطمع فى الله والأمل أن يتفهم من معانيه ما يشرح صدره ويعطيه نفحة روحية ترتقى معها إمكاناته فى طريقه وطلبه دوما أن تجعل منه رحلة الحياة إنسانا أفضل..

فالتعامل مع كتابنا الكريم يجب أن يتم على مستويات متعددة كل حسب إمكاناته وأهدافه.. لكن الشيء المشترك بين الجميع هو أن يكون التعاملُ بالروح وهذه الروح تعطى الحياة للعقل ليتدبر.. وللجوارح لتعمل.. وللقلب ليصلح شأنه.. إن الحديث عمّا وصلت إليه العلاقة بين الإنسان وبين كتاب الله ليست إلا جزءا من علاقة المسلمين وتعاملهم مع دينهم ككل..

فإذا كنت فى قراءتى لأحوال هذه الأمة وأنا واحدة منها لا تنفصل.. يعيبنى ما يعيبها وينقصنى ما ينقصها وأبحث عما يشفينى ويشفيها.. أرى أن أزمتها الأساسية هى أزمة فقدان الروح.. فإنى أرى ملامح هذه الأزمة فى مظاهر أخرى نستعرضها.. ثم نفكر.. هل يمكن وكيف.. تبعث الروح؟!

○ ○ ○

أفتنى يا سيدى ..

تعم فلكم يراود كل مسلم فى حياته اليومية أسئلة حول أحكام العبادات والسلوك فيهرع إلى كتاب فى أصول الفقه يبحث فيه عن معلومة توجهه فيما حيَّره.. فإن لم يجدْها أو لم يتيسر له لأى سبب الحصول عليها يوجه سؤاله إلى أحد رجال الدين أو الفقهاء أو لمفتى الديار.. ليس فى هذا غرابة فكلنا يتشكك لبرهةٍ فيما يفسد أو لا يفسد الوضوء.. أو الصيام.. أو يريد أن يقدر حجم الزكاة المفروضة عليه.. ويبحث أحيانا فىأحكام الصلاة.. الفرض.. والنوافل.. وإن أراد أداء فريضة الحج أو العمرة فهو ولا شك باحث عن مناسكها وشرائعها.. كل هذه أمور طبيعية يمارسها كل مسلم.. وتظل مثار إهتمامه ولا ينتهى السؤال فيها ولا الحاجة إلى الفتيا.. ولكن هل الدين والتعامل معه يقتصرُ على الإهتمام بهذه الأمور وكأن الدين قد فرغ إلا منها؟

هذا «التقلص» فى الإهتمامات الدينية أراه شيئا مما قتل الروح ليس لأن هذه الأمور غير هامة ولكن لأنها صارت بذاتها كيانا

مستقلا منفصلا عن الهدف من أدائها.. بل إبتلعت الهدف تماما وصار ما يبرز منها هو تفاصيل وجزيئات الأداء الشكلى لكل منسك أو شريعة.. حتى صار الحوار مثلا بين رجل أو سيدة تهتم بأمور الدين وبين رجل الدين لا يخرج عن السؤال فيما إذا كان هذا «الشكل».. هذا «المظهر».. حلالا أم حراماً..

وصار معنى «التدين».. دون أن نقصد أو نعى أو نشعر هو مقدار الإلتزام بشكلٍ ما.. والدقة فى تنفيذ هذا الشكل هى معيار حكم الإنسان على نفسه وعلى الآخرين بأنه إنسان متدين..

لست أعترض على أى شكل أو مظهر دينى.. ولا على الإهتمام به.. ولكن على أن يصبح هذا المجال متضخما إلى درجةٍ تلاشت معها أمور أخرى تتصل بالإنسان من داخلة كروح وقلب وفكر ووجدان وهى فى حاجة للإهتمام بها والإنشغال بها كجزء أساسى من حياة المسلم التى تعتبر كلاً واحداً لا ينفصل فى عباداته أو مسلكه وعمله وتعامله مع نفسه ومع الآخرين..

بل إنَّ هذا «الإنكماش» و«الإنفصال» فى التعامل مع طقوس وشعائر الدين هو الذى سلب الروح من تعاليم الدين الأخرى التى لا ترتبط بشعائر ما وتركها تبدو أيضا كأنها «مجرد كلمات» أو شكل محدد نمطى بديهى لا يسترعى حتى التأمل والتفكر والإجتهاد..

فإذا ما ذكر «الصبر الجميل».. فما عاد معنى يشغل الإنسان

وكأنه بديهة أن الصبر معناه أن يبقى صامتا وصامدا على ما يمر به.. يعنى ألا يفعل شيئا فكأن كل الصامتين صابرون.. بل بات حتى يقترن بالسلبية.. وبأن الإنسان ليس فى يده ما يفعله وهو لذلك صابر أمّا إذا أتيحت له أى فرصة لدفع هذا الذى لا يريد فعلمَ الصبر! هو ولا شك متخلص من كل ما لا يطيق.. نكاد لا ننشغل بالمعنى كمعنى جميل نريد أن نتفهمه ونعرف أين نحن منه ونطلبه لأنفسنا بغضِ النظر عمّا نفعل أو لا نفعل.. ليس فى دائرة الإهتمام أن نحاول أن نفهم ماذا يعنى الصبر؟ ولماذا هو صفة حميدة؟ ومن هو الصابر؟ وكيف أكتسب لنفسى هذه الصفة عند أىّ ملمة؟ وكيف أدعو بأن يهدينى الله أن أكون من «الصابرين» لا من السلبيين أو الخاملين أو الجبناء أو الضعفاء أو المتقاعسين لأن هذه كلها نقائص فى حين أن «الصبر» فضيله وإيجابية وعمل.. أو أترانى من هؤلاء أم هؤلاء؟ وكيف أعرف؟ قضية تحتاج إلى جهد وتأمل وعمل ورغبة فى إكتساب الفضيلة حتى أستطيع أن أميز..

قضية أخرى إذا ما قيل «إدفع بالتى هى أحسن».. بدت وكأنها بديهة أن يسبنى شخص ما أو يظلمنى.. وأسكت ولا أرد هذا الظلم والإعتداء أو أفرض على نفسى شكلا معينا فى التعامل.. مجرد شكل.. ولم تعد قضية التساؤل عمّ هو أحسن.. وكيف أكون إنسانا لدى ما هو أحسن.. وهى قضية «داخل» يبحث عن الأفضل.. ويحب أن يكتسب صفاتٍ أفضل فى دوام.. ليتعامل

بها..

لا ينشغل المسلم مثلا بقضية «إستفت قلبك وإن أفتوك».. كيف يمكن أن يكون القلب أهلا للفتيا؟ وكيف أوجد هذا الحوار مع قلبى حتى يفتينى دون أن يحول بينى وبينه شىء؟ وهل معنى «فتيا القلب» أن يعطينى الضوء الأخضر لما تريده نفسى وصالحى الخاص أم الفتيا هنا لها مواصفات أخرى أكثر نزاهة وموضوعية؟ أليس إصلاح القلب قضية كبرى تستحق من الإنسان أن ينشغل بها طوال عمره حتى يأتى الله بقلب سليم؟ أو ليس هدفا أن يعملَ الإنسان ويجتهد ليصلح القلب؟ ماذا أفعل إذن؟ أفتنى يا سيدى!

«تخلقوا بأخلاق الله» «كان خلقه القرآن» «وإنك لعلى خلق عظيم».. هل كل هذه بدائه لا تحتاج أن ينشغل الإنسان بمراقبة نفسه ليعرف أين هو من أخلاق الله؟ وليطلب بكيانه وقلبه وجوارحه أن يكون له حقا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟ وينشغل فى موقفٍ ما أو مواقف حياته جميعا بأن يستطلع مقدار ما حققه من هذا الخلق العظيم.. وما لم يحققه.. ولماذا؟ وما هو مكمن ضعفه وكيف يكتسب كيانه «أخلاق الله»..

هل هى مشكلة عند المسلم مثلا أن يجد نفسه يحب لنفسه ما لا يحب لأخيه فى حين أن التعاليم هى أن «حب لأخيك ما تحب لنفسك»؟ إذا كان حقا يريد أن يكون كما يريد له الإسلام

أن يكون فهو بلا شك سينشغل بتأمل نفسه ومعرفة نقائصها التى جعلتة يفضل نفسه على أخيه.. إذن هذه النفس يجب إصلاحها.. وإصلاحها ليس فقط بظاهر الشكل فى أن «أقتسم مثلا هذا الرغيف بالعدل» وكفى ولكن فى أن يكون شعورى التلقائى هو هذا العدل وهذا الحب والحرص.. كيف أكون هذا الإنسان الذى صارت هذه سمة من سماته وصفة من صفاته؟ أو ليست قضية؟!

«لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»

سورة الحديد – ٢٣

إشارة ساقها الله فى كتابه الكريم للمؤمن.. فهل هو موضع إنشغال وحوار أن يعرف الإنسان عن نفسه إذا ما كان يأس على ما لم ينل فى حياته.. أو إذا كان يفرح بما جاءه.. وهل يستطيع حتى أن يسبر غور نفسه ليعرف عنها؟ وهل هو صادق فى الرغبة فى إكتشافها؟.. وهل معنى عدم «الأسى» وعدم «الفرح» أن يكون متبلدا عديم الإحساس؟ أم هناك معنى كريم يريد الله لعبده المؤمن أن يكتسبه.. ولن يكتسبه.. إلا إذا طلبه.. ولن يطلبه إلا إذا أراده.. فهل هذا محل حوار وتذاكر وتذكرة وتأمل؟

«ويل للمطففين الذين إذا إكتالوا على الناس

يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»

سورة المطففين – ١

هل يطوف بخلد كل مسلم ويؤرقه إن كان من هؤلاء المطففين أم لا.. ليس فى البيع والشراء فهذا أمر واضح له معايير ثابتة ولكن فى التعامل فيما بين الناس أو ليس الإنسان معرضا لشىء من هذا؟ أو ليس يبيح لنفسه أحيانا أشياء يحرمها على الأخرين؟ أو ليس يلتمس العذر لنفسه أحيانا.. ويتشدد فى لوم الآخرين؟ هل حين يراقب نفسه يستطيع أن يواجهها بنقصها؟ هل إذا ما وجد منها هذا النقص يستطيع أن يدرك أن تلك علاقة عدم إستواء دينى وينشدُ التخلص منه؟ هل هو هدف ذو أولوية عنده أساسا فى تعامله اليومى الذى يتعرض فيه لعشرات المواقف المحتمل أن يكون فيها من «المطففين» أن يكتسب صفة العدل الداخلى التى تخرجه من هذه الطائفة؟ أليس الإنشغال بذلك شأنا من شئون الدين؟

أوامر كثيرة جاءت فى كتابنا الكريم ولا ننشغل بما إذا كنا ننفذها أم لا: تواصوا بالحق.. تواصوا بالصبر.. تواصوا بالمرحمة.. أن نكون من المحسنين.. المتفكرين.. الذاكرين الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.. أن نتبع أحسن القول.. أن نكون من المتقين.. كل هذه الصفات صارت مقترنة بصور مختلفة سطحية شكلية.. وليست فى حد ذاتها هدفا للإنسان من داخله يهمه أن يكتسبها ويجاهد من أجلها على الرغم من أن كلنا يعرف أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر..

حتى كلمة «الجهاد الأكبر» لست أدرى لماذا تبدو فى كل

حديث عنها وكأنها تنحصر في معنى واحد وهو أن الإنسان بطبيعته يميل إلى كل الفواحش.. إلى السرقة.. إلى الزنا.. إلى الفساد ولكنه يضعُ حول نفسه سلاسل من حديد حتى لا يفعل لأنه مسلم يجاهد الجهاد الأكبر..

ولا نتساءل هل أن الإنسان طالما لا يسرق ولا يزنى ولا يكذب ولا يرتكب أيًا من هذه الفواحش بتلقائية شديدة ودون أن يشعر بأى مقاومة.. هل هذا الإنسان لا يحتاج للجهاد الأكبر؟

إنه يحتاج للجهاد لأنَّ الدين يريد له دوما أن يكون فى كل لحظة أفضل وأفضل والمداومة على هذه الرغبة وهذا الهدف فى كل مرحلة هو الجهاد الأكبر.. وهنا يذكر فى حديث الرسول الكريم «إنه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم سبعين مرة.. قيل أأغيان أغيار يا رسول الله؟ قال بل أغيان أنوار» أىَّ أن الرسولَ الكامل الطاهر أكمل خلق الله كلهم كان يستغفر الله – ليس على خطأ – ولكن على حالٍ مضى هو فى هذه اللحظة يرنو إلى ما هو أفضل منه.. دائما أفضل إلى ما لا نهاية.. أليس ألف باء ديننا أن الرسول أسوتنا؟ وأن الرسول مثاليتنا؟ إننا حتى معه ﷺ نتعامل بلا روح.. نقول فعل فنفعل.. وقال فنقول.. ولا ننشغل ولانفكر.. لماذا فعل.. ولماذا قال.. وكيف يمكن أن يكون داخلنا لمحة من داخله.. وقلوبنا ذاخرة ببضعة مما ذخر به قلبه.. أو ليست تلك قضية أن ينشغل المرء بأن يكون كذلك؟!

كل هذه الأمثلة وعشرات غيرها أراها علامة على قتل الروح.. وعلى «إزدواجية» الشخصية الإسلامية.. بمعنى أن الإنسان المسلم على مر العصور وبدون قصدٍ مسبق إنفصل «داخله» عن «تعامِله مع الدين».. لأن الدين صار يُنظر إليه على أنه طقوس وأوامر ونواهى وتعاليم موجهه إليه وليس عليه إلا أن ينفذها.. أمَّا «داخله» فهو شيء آخر خاص به ليكن ما يكون..

نُظر إلى قضايا الدين أيضا وكأنها تخص فئة بعينها عليها أن تنشغل بها.. وتخرج فيها بأمور ما.. وعلى العامة أن تنفذ ولكن ليس عليها أن تفكر أو تجتهد أو أن يكون لها أى نوع من الحرية فى التعامل مع أمور الدين..

هنا قد يتساءل البعض ومن أين تأتى الحرية؟ إن علىّ أشياء محددة أفعلها أن أصلى وأصوم.. وأفعل كذا وكذا ولا أفعل كذا وكذا وكلها أشياء ليس فيها قولان؟! أقول نعم يا سيدى إننى لا أقول لك لا تصلى ولا تصوم ولا أقول لك إذهب فإشرب الخمر كما يحلو لك.. ولا أقول.. ولا أقول..

ولكن بالحرية أعنى رؤية الإنسان لنفسه.. لعلاقته بالدين وتعاليمه ولعلاقته بالله.. فالدين لا ينفصل عن علاقة الإنسان بداخله وخارجه.. تعاليم الدين يجب ألا ينظر إليها على أنها شىء مفروض من الخارج.. وأنفذه بجوارحى وجسدى وكفى.. تعاليم الدين هى نوع من اللغة

التى يمنحها الله للإنسان حين يتعلمها يستطيع أن يتواصل مع نفسه ومع ربه..

بالحرية أعنى أنَّ الإنسان بفطرته وطبيعته سيجد نفسه فى إحتياج لهذا الدين.. فإذا تعلم كيف يتواصل مع قلبه سيجد هذا القلب هو الطالب وهو الساعى.. ويجد الله مرشده إلى ما يسعى إليه.. إذا ما شعر الإنسان هذا الشعور سيجد أن كل أمر من أمور الدين هو سلوكه الطبيعى التلقائى.. فى حياته اليومية وفى عباداته.. لا فرق.. فهو فى يوم ينشد التعامل الأفضل فتدله تعاليمُ الدين عليه.. وهو يريد أن يتركَ الدنيا لبرهة ليتعبد فينتظر وقت الصلاة فتتيح له ذلك.. القصد هو أن الدين بتعاليمة يعطى للإنسان فرصة حقيقية فى أن تكون كل حياته.. معاشا وعبادة.. لحظات تقربه إلى الله بأن تجعل منه إنسانا ساعيا دوما إلى الأفضل.. وهذه الفرصة بهذه الصورة ليست «خيالية» ليست بعيدة عن صفاته وإمكاناته بل إن واقعيتها تكمن فى أن أى إنسان فى أى مرحلة من مراحل تطوره.. فى أى صورة من صور العصيان أو الطاعة.. الإستقامة أو التقصير.. الإنسان كما هو بخيرة وشرة.. بعلمه وجهله.. بنوره وظلامه.. يستطيع أن يتعامل مع تعاليم الدين بما يجعل منه إنسانا أفضل.. إذا ما قام هذا الحوار بينه وبين هذه التعاليم.. إذا ما أدرك نقطة البدء..

نقطة البدء ليس أن أنظر إلى الدين على أنه أوامر ونواهى لست

إزاءها إلا آلة.. أو جسد بلا روح.. ولكن أن أنظر إلى نفسى أولا على أننى «جسد وروح» كيان واحد.. أسأله ماذا يريد.. وأعرف منه ما يصبو إليه.. وأستمع إلى مطالبه.. ولن أجد ما يحقق مطالبه أكثر من تعاليم الدين.. وكلما نما هذا الكيان الداخلى كلما عرف أكثر كيف يستطيع أن يستفيد من تعاليم الدين..

هذا «الخصام».. و «الفراق».. و«الصمت» السائد بين داخل الإنسان.. وبين تعاليم الدين.. هو الذى قتل الروح.. لأنه من السهل أن أقول للإنسان: إركع.. إسجد.. قف.. توقف عن الطعام.. ولكن هل أستطيع أن آمر القلب أن يعمر بالإيمان؟! هل أستطيع أن آمر الروح بأن تتشوق للقاء ربها؟ هل أستطيع أن أسكب الحب فى قلب إنسان؟ هل أستطيع أن أنزع الظلم من قلب الطغيان؟

كيف يمكن أن نعيدَ الروح إلى كل مظاهر الدين.. فتصبح كلمة «الصلاة» تعنى «الصلاة» شكلا.. ومعنى.. وقياما.. وطهرا.. ووصلى.. وإنقطاع عن دنيا المادة.. وجسدا مسبحا.. وقلبا خاشعا.. فى نفس اللحظة.. لا إنفصال لثانية..

الأمر يحتاج.. أظن.. إلى تغيير فى رؤية الإنسان لنفسة.. وتغيير فى رؤيتة لعلاقته بالدين .. فهل نحن بحاجة إلى هذا التغيير؟

○ ○ ○

لسنا وحدنا!

لسنا وحدا المحتاجين إلى تغيير فى النظر إلى أولويات الحياة وأهدافها.. وإيجاد المرجعية التى تحدد هذه الأولويات والأهداف فالعالم كله فى حاله فائرة من المتغيرات حتى ليكاد كل من يتحدث عن القرن القادم الواحد والعشرين وفى أى مجال من مجالات الحياة لا يخلو حديثه من الإحساس والإشارة إلى أن البشرية وكأنها ستبدأ من جديد!! على مستوى السياسة يقولون النظام العالمى الجديد.. وعالم فيه التعاون والتكافل بدلا من الصراع والتناحر.. ما عادت الأسلحة هى التى تحدد قوة الدول ولكن الجميع يبحث عن معايير جديدة للقوة فيقول البعض إنها لـ «الإقتصاد» ويقول آخرون بل للعلم.. للثقافة.. للفكر.. وتظهر مشاكل البيئة التى تهدد كرتنا الأرضية وكوكبنا الضئيل.. لا تفرق بين دولة عظمى ولا صغرى.. ولا شمال ولا جنوب.. ولا عالم ولا جاهل فيقف الجميع مذهولا حائرا أمام ما صنعه الإنسان بنفسه بظن التقدم والتكنولوجيا.. ويتساءل كيف نقضى على الخطر الواحد الذى يهدد الجميع بلا

إستثناء؟

وماذا جنى الإنسان مما صنعت يداه؟.. وهل النداء بالعودة للطبيعة هو تقويض لطموحات العلم؟ ثورة المعرفة والإتصالات التى تجعل أى إنسان يلهث جاريا خلف ما يتدفق هنا وهناك من معلومات لا يلحق بها.. وهل يعرف كيف يستفيد منها؟ ووسط هذه السيولة فى كل شىء.. تنطلق من قلب الحضارة المادية والبلاد الأعظم فى التقدم العلمى والتكنولوجى نداءات إلى الإحتياج إلى الروحانيات.. فبعض الناس هناك أدركوا أن الحضارة عندهم أشبعت إحتياجات الإنسان المادية وعملت على راحته المعيشية لكنه يفتقد شيئا ما فى أعماقه صار يبحث عنه فى كل ما هو غير مادى.. فينجذب إلى نداءات تبشيرية بإسم المسيح.. إلى دوائر إتصال بالعالم الآخر.. ولآن الحرية فى الغرب تقدس رغبات المواطنين فإنَّ الإتجاه إلى إشباع هذه الرغبة أتاح ظهور الأفكار الكثيرة التى ظهر بعضها من منطلق المبدأ الإقتصادى المعروف بـ «العرض والطلب»

ولا نستطيع أن نحكم على الغث والثمين منها ولكنه مجرد إشارة إلى أنَّ منتهى التقدم العلمى والمادى لم يمنع الإنسان بفطرته أن يشعر أن به إحتياجا إلى المعانى وأنه يبحث عما يرضى هذا الإحتياج.. أمّا نحن معشر هذه الأمة.. ووسط هذه المتغيرات السارية فى هذا العالم المتقدم الذى نتطلع إليه.. ووسط المتغيرات بداخلنا.. فنحن الأكثر إحتياجا إلى تحديد الأهداف والأولويات..

والخطر العظيم الذى يتراءى لى على قدر ما أرى وأتعامل مع نفسى كفرد وسط هذا الخطر إننا إزاء هذه المتغيرات نقع صرعى بين تيارين يبدو لأول وهلة أنهما ضدان وهى فى الحقيقة وجهان لعملة واحدة.. وأقصد بهما ما صرنا نسمية با «التطرف» ثم «التغرب».. فالأول هو هروب إلى «الماضى» و «السلف الصالح» كما يظن أصحابه.. فهو هروب فى الزمن.. والثانى هو هروب إلى «الحضارة المادية» فى الغرب وهو هروب فى المكان.. كما أن الإثنين يشتركان فى أنهما «هروب فكرى» من الواقع.. من الحاضر..

كلٌ خلق له عدوا من صنع خياله أخذ يحاربة ونسى فى النهاية لماذا يحارب وأىُّ معركة يريد أن يكسبها.. وما الذى يريد تحقيقه من هذه الحرب.. من ينادون با «السلفية» الدينية.. أو من عرفوا بإسم «الأصوليين» المسلمين.. يرفضون الغربَ بعلمه.. وقيمه.. وحضارته.. ولكنهم حتى وهم يرجعون إلى «الأصول» كما يقولون فإنهم لا يرونها وهم متحررون ولكن يرونها من خلال تراكماتٍ خلفتها رؤى الإنسان عبر التاريخ.. وهم يركزون على محاربة عدوهم «الغرب» لكنهم لا يقدمون ما ينفع حبيبهم.. وهو «المسلم» العادى الذى ينشد حياة أفضل..

ومن يرون فى الحضارة الغربية بتقدمها العلمى وحرياتها مثاليتهم محاربون أيضا عدواً من صنع خيالهم وهو «الظن» بأن «الدين» يعرقل حرية الفكر ويضع القيودَ على التقدم المادى.. فصار الدين

عندهم مرتبط بالتخلف.. والتخلي عنه في رأيهم الطريق الوحيد للتقدم..

ذريعة الفريق الأول «الأصوليين» أنهم يرفضون من كونه دولة «الكفر والإلحاد».. وذريعة الفريق الثاني «المتغربين» هو أنَّ ما تسمى «الأمة الإسلامية» لم تحقق إلا كل تخلف عن مسيرة العلم والحضارة..

هؤلاء محاربون في جبهتهم.. وأولئك يدعون إلى مسيرتهم.. هؤلاء يقولون «الإسلام هو الحل».. وأولئك يقولون بل «العلمانية».. أيّ «لا» للدولة الدينية.. فالعالمانية هي الطريق إلى جميع الحريات.. وإلى التقدم.. وإلى إنهاء ما وصلنا إليه من تخلف..

لست في محل الحكم على صحة أو خطأ أي فريق ولست في مجال تحليل نقدي شامل لأي تيار.. بل إنه من الطبيعي أن يكون على الساحة الفكرية تيارات وتيارات.. فنحن نرى مثلا وسط هذين النقيضين ظاهريا.. أو طرفي النقيض.. تيارا آخر يسمى «التيار المعتدل» وهو ما يحاول أن «يوفق» بين «قيم» الدين وبين «تقدم» الحضارة الغربية.. أيّ أن نتبع مبادىء الدين ولكن لا نرفض «العلم» الغربي.. هذا التيار موجود بدرجات متفاوته.. يخفف من حدة التيارين السابقين..

وإذا كنت لست في مجال الحكم من منطلق إحترام حرية فكر

الآخرين.. وإحترام الإختلاف.. والإيمان أيضا بأنه ليس هناك خطأ مطلق أو صواب مطلق ولكنها إجتهادات البشر فى التفكير.. فإننى من موقعى كإنسان عادى وسط هذه التيارات.. تصاغ فى ذهنى رؤى تختلف أحيانا وتتفق أحيانا أخرى مع الأفكار المطروحة..

فإننى حين أفكر مع من يقولون «الإسلام هو الحل» أجد غياهب كثيرة تعوق فهمى.. لأنى كما قدمت فى الفصول السابقة أجدْ الواقع.. أو إستشعره يقول لى إن جسد الأمة الإسلامية جسد بلا روح.. ولا زلت أفكر كيف تبعث الروح..

وحين أفكر مع من ينادون بالعالمانية والتى يقصد فى جانب منها الإنفصال الكامل بين الدين والدنيا.. وهم فى هذا يرى الكثيرون منهم فى الغرب منشودهم ومثاليتهم.. أجدنى أقول لهم إن هذه الحضارة بدأت تدرك الآن.. والآن فقط أن إهمالها الروحانيات يمثل نقطة ضعف ليست هينة فيها.. فإن أعلى الدول الغربية حضارة تعانى من مشكلات معنوية ضخمة تدفع ببعض الناس فيها للإنتحار.. أو الضياع.. والشقاء الذى يقول عنه المفكرون وهم يستطلعون مستقبل هذه الأمم إنه يمثل بذرة إنهيار الغرب..

لا أقول إن هذا يجعلنى أرفض الحضارة الغربية.. ولكن هل يجب وأنا – أى الأمة الإسلامية– أبحث عن طريقى للتقدم أن أخطو جميع الخطوات التى خطتها هذه الحضارة حتى اكتشف

إننى أهدرت جزءا من وجودى علىّ أن أبحث عنه من جديد؟ أم من الحكمة أن أبدأ من حيث إنتهت؟ ولكن كيف تكون البداية..

أراها كما أراها فى تغيير نظرة الإنسان المسلم لنفسه.. ولعلاقته بالدين.. أراها فى إحساسة بالحرية.. أراها فى إيمانه بنفسه أنه إنسان.. أراها فى أنها إكتشاف وتواصل فى هذا الجزء العميق فيه.. سمه «الروح» سمه «القلب».. سمه ماشئت.. لكنه هذا «الشيء» أو «اللاشيء» الذى إذا حيا وإستوى.. تصح كل ملكات الإنسان وأعضائه.. فيعرف القلب كيف يحب.. ويعرف العقل حسن التفكير.. وتسعى الجوارح إلى العمل المثمر.. والمنتج.. والنافع، هذا الجزء من الإنسان يقتل حين يحرم من حرية الحركة.. من حرية العمل تحت ذريعة الأوامر والنواهى والتعاليم حين يظن أنها تفرض عليه من الخارج لتقتله.. وهى قد وجدت لتحييه..

وهذا الجزء من الإنسان يقتل أيضا تحت قطار المادية اللاهث الذى يحول الإنسان إما إلى «حيوان» أو «آلة»..

فهل من الممكن أن تكون هناك نظرة جديدة إلى علاقة الإنسان بدينه تبعث فيه الروح؟

○ ○ ○

الواقع .. والحب .. والقانـون

لا أستطيع.. ولا أجرؤ أن أقول أن الإسلام كذا وكذا.. ولا أنـه يقول.. ويقول.. لأن الإسلام يتسع ويمتد إلى أكبـر مـن إحاطـة أى بشر.. ولكن أستطيع أن أقول ما «أفهمة» هو كـذا ومـا هـدانى إليـه تأملى هو ذلك.. وما أدركه هو هذا.. فمن يدّعى أنَّ مـا يقولـة هـو «كلمـــة» الإسلام و «موقـــف» الإسلام مـــن أى شىء أراه يتخطى حجمه ويجرؤ على إعطاء نفسه ما ليس لهـا مـن حـق.. ولـذا ليس من الدقـة أن يقـال مثـلا إننـا فى حاجـة لتجديـد الإسلام أو تطويـر الإسلام.. ولكن يمكن أن يقال نحن فى حاجة إلى تجديد أنفسنا.. تجديد «علاقتنا» التى شكلت ملامحها الأجيال السالفة والمعاصرة..

وعلاقة الإنسان بدينـة ترتبـط إرتباطـا وثيقـا بنظرتـه وفهمـه عـن نفسه.. سيقرأ دائما فى الدين وسيأخذ منه بمقدار مـا يريـد «هـو».. وما يفهم «هو» وما يحتاج «هو» وما يستطيع «هـو» فليس هنـاك أىٌّ تعميم اللهم إلا فى الأشكال الخارجية والمظاهر المشتركة لمناسك وتصرفات تجعل «الجميع» ينتمون إلى الإسلام فى شهادات ميلادهم..

ولكن هذا «التفرد» فى التعامل الحقيقى والجوهرى مع «الدين» هو قضية خاصة بكل نفس وما كسبت.. ومن هنا نستشعر التركيز فى الحديث عن يوم الحساب.. ويوم الفصل فى آيات الكتاب الكريم على أن الإنسان الفرد هو المسئول عن أعماله.. وحسناته وسيئاته..

بل إن أى إنسان لن يغنى عنه من العذاب من شئ إن كان قد سلك الطريق غير المستقيم أن يقول مثلا هذا دفعنى إليه فلان.. مهما كان قدر هذا الفلان فدائما يتبرأ الذين «إتُبعوا من الذين اتبعوا» وهناك دائما من يقول «ما كان لى عليكم من سلطان»..

نعم فقضية الدين وسلوك الإنسان فيه هى قضيته الخاصة به وحده.. عقله.. قلبه.. عمله.. جوارحه.. ومهما سادت مفاهيم.. وتعارف الناس على صور وأشكال.. وصارت أشياء ثابتة راسخة فى أذهان الملايين وتوارثتها أجيال..وإنتشرت فى أراضى الله الواسعة.. حتى جبن أى إنسان عن الخروج عليها وأتهم أى إنسان بالكفر إن إنتقدها سيبقى كل إنسان وحده هو المسئول عما «يفهم» هو و«يفعل» هو.. لا مفر من هذا المنطلق أقدم قراءتى أو دعوتى إليك بالحوار حول رؤية فى الدين تتلخص فى كلمات ثلاث:

الواقع.. والحب.. والقانون..

الواقع فى رؤية الإنسان لنفسه.. فالإنسان.. أى إنسان هو روح

ومادة.. عقل ونفس وقلب وجوارح هذا هو كل إنسان مهما بلغت درجة ضعفه أو قوته.. جهله أو علمه.. قدراته أو نواقصه.. إنه عالم مغلق طرق أبوابه العلماء.. وعرفوا بعضا من أسراره.. ولا زالوا يجهلون الكثير والكثير.. فإذا ما كان كل جهاز فى الجسم يعملُ بكفاءة شديدة ليكون الإنسان فى صحة جيدة فهناك هذا الجانب غير المرئى الذى مهما عرفنا أو جهلنا عنه فإنه هناك يعمل.. يعيش.. يتفاعل.. يتحرك.. يتدبر.. بل ويسيطر فى أحيان كثيرة على أداء الجسد فإن كان نشطا مزدهرا يعطى للجوارح القوة والقدرة والإمكانات..

لست بصدد تعريفه إذا ما كان هو النفس أوالروح أو بتحديد معلومات معينة عنه.. ولكن أقول فقط إنَّه فى رؤية الإنسان لنفسه إذا ما أراد أن يتلمس الواقع أن يدرك أنَّ هذا الوجود غير المادى له تأثير على وجوده الكلى وتفاعله مع الحياة.. فإن كانت الأوامر الصحية تقول بمعايير معينة لصحة الجسد.. وإن عدم توافر هذه المعايير ينجم عنه شكوى جسدية.. أو ما نسميه بالمرض إلى أن يستعيدَ الجهاز البشرى إستواءه..

فإننا لا نعلم الكثيرَ عن هذا الوجود اللامادى.. أو اللاملموس.. إغفال هذا الوجود والتركيز على متطلبات الجسد وحده يحدث خللا فى أداء الإنسان وإستوائه.. وهذا ما يشهدُ به كثيرون من علماء النفس والأطباء.. حيث يكتشفون أن كثيرا من الأمراض

النفسية هي بسبب إهمالٍ لإحتياجات لامادية.. أو إصابة هذا الجـزء اللامادى من الإنسان بضرر لا يدخـل فى إطـار حسابـات الجسد..

رؤية الإنسان لهذا الواقع.. وإيمانه به ستدفعه من منطلق الحرص على الإستواء أن يستجيب لمتطلبات هذا الجزء مـن وجـوده.. غيـر منفصل عن وجوده المادى وإن كان فى لحظات ما يريد أن يستأثر بالإهتمام الأول.. إنهـا لحظـات العبـادة إن أدرك الإنسان..

فهى إنتباهة منه إلى أنه كما يطلب الجسد غذاءه وشرابـه.. فهـو مطلب هذا الجزء الغيبى فيه لأصله لعالمه.. فيعطيه مطلبـه بإنقطاعـه عن عالم المادة وخلـوده إلى عالـم الغيب فى لحظـات عبـادة.. فى صلاة.. فى صيام.. فى تأمل.. فى تفكر.. فى تدبر.. فـإذا مـا تـزود هذا الجزء فيه بمطلبه.. بغذائه.. بشرابـه.. بدوائـه.. صح وتعـافى.. وعاد بوجوده الكلى للحياة الدنيا ينهل منها هذه المرة جسدا وروحا فى جهاده وعملِه وعلمه.. وتتوق الروح لعالمها من جديد وتظمأ.. وتهـن جوعـاً.. فيلبى نداءهـا.. نـداء الصلاة.. هـذا الواقـع يحتـاج الإنسان أن يدركـه.. ويقـرأ فى تعاليـم الدين بهـذا الـوعى.. فليس الأمر بالصلاة مجرد أمـر طلب أن يطـاع.. لكنـه «فـرض» يستجيب لواقع الإنسان.. الإنسان يحتاج إلى هذه اللحظات.. ولكنـه لـو لـم تكن عنده التعاليم قد ينسى ويقسو على الروح بحرمانها من غذائها النورانى لأنه ربما يكـون غيـر مؤهـل إلا لسمـاع صرخـات الجسد وإحتياجاته ولا يصل إلى مسامعـه صرخـات الـروح.. فتهلك..

ولذا نجد أنّ نداء الروح يسمعه الصالحون بالفطرة فمن قبل التعاليم المفروضة نسمع عن كل نبى أو صديق بأنه كان ينقطعُ للعبادة لأحيان يترك فيها العالم المادى وأحكامه.. من طلب منه هذا!.. إن كل ما فعله هو أنه لفرط شفافيته إستمع إلى نداء الروح تريد أن تخشع لربها.. لعالمها.. تستقى منه لتحيا..

فما كانت تعاليمُ الدين إلا إستجابة لإحتياج هو موجود فى الإنسان السوى.. فإذا كان يريدُ صحة كيانه كلِه فإنه كما يسأل الطبيب عن أفضل أنواع الطعام والنظم المعيشية.. وعدد ساعات النوم.. والتمارين الرياضية.. فإنّ معها لا ينفصل معايير لصحة الروح.. هى إن كان يأبه لصحته سيجد لها وقعا حسنا فى نفسه.. وسيصوغها بنفسه حين يتعلم كيف يتفاعل بروحه مع تعاليم الدين.

تعاليم الدين تقولُ بأنه يحدث الإنسان على أساس هذا الواقع.. واقع كل إنسان.. وليس إنسانا محدداً.. فهناك حديث للعالم وللإنسان العادى.. للمثيب وللمخطىء.. للضعيف وللقوى.. للمحسن والمسىء.. للغنى وللفقير.. للقادر والعاجز..

كل إنسان بدءاً من واقعه هو يستطيع أن يتعامل مع تعاليم الدين.. أنت كما أنت.. وأنا كما أنا.. ليس مطلوبا أن يكون أىّ إنسان إنساناً آخر بل مطلوب فقط أن يكون نفسه.. ولكن أن يرى نفسه فعلا.. يرى إمكاناته.. يرى قدراته.. إمتيازاته.. نواقصه.. محاسنه..

فإذا ما عرف ذلك فإنه سيختار هدفه بحرية شديدة.. وهنا يأتى الحب.. فمن أحب شيئا كانه.. إن حتى الطفل منذ الصغر يقول «أحب» أن أكون طبيبا.. «أحب» أن أكون معلما.. أحب.. وأحب..

فمن أحب أن يكون جسدا فانيا.. فله هذا بكامل حريته.. ولكم رأينا الكثيرين ممن ينكرون الجانب الروحى للإنسان يقولون بأنهم ليسوا أكثر من «حمار نافق».. وكان لهم هذا لأن عقيدتهم جعلت تراكمات شديدة بين مسامعهم وبين نداء الروح داخلهم.. وبين بذرة الفطرة التى أودعها الله كل إنسان.. فلم يلبوا نداءها.. فماتت فعلا.. ولم تبق منهم إلا أجسادا.. سلبت الحياة.. وبقت ترابا..

أمَّا الذين يؤمنون بإمتداد الحياة.. بأن للإنسان وجوداً ممتدا بعد هذه الحياة.. وبوجود حياة آخرة.. فإنهم سيحبون أن يكون هذا الإمتداد صالحا.. يانعا.. مشرقا.. ودون تصوير للغيب.. ودون تجسيد للمعانى.. فإن هذا الحب سيدفعهم إلى الحرص على صحة هذا الكيان.. هنا وجب عليهم أن يعرفوا شيئا عن «القانون» معرفتى بالقانون تجعلنى أكثر قدرة على أن أتعامل مع وجودى الكلى بأفضل صورة.. مثل البذرة حين تغرس فى الأرض الطيبة.. إنَّ بداية الرحلة هى حبى لهذه الزهرة التى جعلتنى أختار البذرة والأرض الطيبة.. لكن هذا وحده لا يكفى.. فهناك معلومات مطلوبة عن كمية المياه.. أوقات الرى.. درجة الحرارة.. أشعة الشمس.. إزالة العشب..

القانون يقول إن أفضل أداء لزراعة هذه الثمرة هو مراعاة كل ما أعرف من قواعد وإحتياجات لتخرج يانعة.. يافعة.. مشرقة.. فإن كان هناك ما لا أعرفه فربما تكشفه لىّ التجربة.. والخبرة.. علىّ فقط أن أكون مخلصا فى أداء ما أعرف..

تعامل الإنسان مع نفسه إن كان مثل التعامل مع «بذرة» فى أرض صالحة ستجعلُه يتفهم أكثر لما يريدُ الله به فى دينه.. إنه فقط يعلمه كيف يكونُ فى حالة إنسجام وتوافق مع القانون لينمو وينمو صحيحا معافى وليس هذا قهرا.. أو أمرا صادرا لذاته.. ولكنه تقرير لحقائق كلما إتسع إدراكُ الإنسان.. ووعيه ورقيه كلما إستطاع أن يصل إلى ترانم أكثر مع القانون وكلما نما.. وتعافى..

وهذا دعاء كل مؤمن حين يطلب من ربه أن يكون مع «الصديقين والنبيين والصالحين والشهداء».. فكما أنّ هذا العالم تولد فيه رضع.. وتنمو صبية.. أطفالا.. شبابا.. وشيوخ.. فهذه مراحل العمر التى تعمل بها قوانين الحياة الطبيعى أن ينمو الرضيع فيصبح طفلا.. ثم شابا.. مع إختلاف درجات الصحة والنمو التى تؤثر على القدرات.. فيكون هزيلا أو يافعا..

النمو الروحى للإنسان له قوانينه.. التى وإن لم نلم بها فإن «الخبير» بها يعلمنا ويوجهنا.. وليست أبدا كمًّا جامدا سيعلمه الإنسانُ مرة واحدة.. أو يستوعبه كمعلومة.. وكفى.. ولكنه ينهل

بمقدار على قدر طاقته التى لا يكلفه الله إلا وسعها.. ولكل نفس ما كسبت وعليها ما إكتسبت..

إذا ما رأى الإنسان واقعه حقا.. وأحب لنفسه وجودا أفضل.. وبدأ يتعلم كيف يكون فى إنسجامٍ مع القانون فإنه يكون قد فتح حواراً بين نفسه وبين تعاليم الدين.. ولكلٍ تجربته.. يطلب فيجاب.. يخطىء ويستغفر.. يحسن ويشكر.. إنها تجربته.. إنها حريته.. إنه حديثه الخاص بينه وبين ربه.. يحار.. ويسأل.. ويجد الإجابة.. يجرب ويخطىء ويضل الطريق.. يسأل ويطلب ويلبى النداء.. يعمل.. يجتهد.. تتناقل التجارب بين إخوان متحابين.. يعجز.. ويقدر.. يقوى.. ويضعف.. تختلط عليه الأمور.. وتتضح الرؤيا.. لكنه إنسان يعيش بكلَه.. بعقله وفكره.. بقلبه ووجدانه.. بجوارحه.. يترانم مع القانون مرة.. ويتخاصم معه مرات.. فيتعب ويمرض.. فيكتشف.. ويتعلم.. ويتعرض للنفحات الحقية.. ويدرب على الإستماع إلى نداء الروح.. ويلبى.. ويشفى.. ويعمل.. ويسعى ويتعلم.. ويحار.. وتشق الأمور عليه.. ويغضب.. ويستغفر ويرضى.. ويقلق.. ويطمأن.. ويشكر.. لكنه فى كل مرة يجتهد فى أن يرى واقعه.. وأن تكون الرؤية صحيحة على ما يدرك وما يقدر لا ظن ولا وهم ولا خيال..

ومن هذا الواقع.. يحب أن يكون أفضل.. ويتعلم من الدين بلا توقف كيف يكون فى ترانم مع قانون السعى إلى أفضل.. فيجتهد

ويعمل ويتعبد.. ويصل.. ثم يحار.. فيعانى.. ويبحث.. ويضاء له الطريق.. فيسلك.. وينجح.. وينمو.. ويعرف.. ويشكر.. ويسعى من جديد ويتعرض لتجربة جديدة.. يقرأ هذه المرة بمحصلة ووعى أفضل.. فيحسن الأداء.. ويحمد.. ويسلك من جديد.. فيخطء.. فيندم.. ويستغفر.. ويتعلم.. ويعود للحق.. فيفرح.. ويشكر..

إذا ما طبقنا هذا المفهوم على سعى الناس فى رحلة الحياة فسنجدُ أن التعميم لا ينطبق إلا على خطوط عريضة جدا هى وجود عوامل معينة يحكمها قانون فوق إدراكنا لكن تفاعلها ينتج ظواهر محددة يعلمنا الله جزءا منها فى كتابه.. فهناك قانون يقول إنه من أعطى وإتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومن بخل وإستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى.. وهناك قانون يقول أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.. وآخر أن من قتلوا فى سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون.. وأنَّ الله يجيب دعوة الداعى إذا دعاه.. وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.. وأنَّ هؤلاء يبدّل الله سيئاتهم حسنات..

قوانين وقوانين حقية.. علوية نتأملها إيمانا وعلما ونحب أن نكون فى ترانم معها.. ولكن كل إنسان ستكون له تجربته الخاصة التى يعيشها بحريته – فيما يخص إراداته وإختياره [ويتفاعلُ مع الأشياء بما يجعله فى مكانٍ ما من مجريات الأمور..] فإن مرَّ بتجربة «التائب من الذنب» فعلا فإنه سيكون كمن «لا ذنب له»..

وإن قام حقا فى معنى «تقوى الله» فالقانون يقول أن الله سيجعل له مخرجا.. إذن سعيه هو.. مسئوليته هو أن يكون حقا فى معنى «التائب» ومعنى «التقوى».. لاظنا ولا وهما.. وليس هو الذى سيقول إن كان حقق هذا أم لا.. هو فقط سيعمل عقله وقلبه وقدراته وصدقه فيما يرى فعلا وحقا.. مع الطمع والأمل.. لكن القانون هو الذى سيفعل ويتفاعل..

إذن فالتعميم هو فى سريان القانون.. ولكن تطبيق القانون فيما يخص كل إنسان فهى قضيته وتجربته الحرة.. إعتقادى أن الإنسان إذ ما سلك هذا المنهج وهو الجهادُ فى رؤية واقعة.. وحبه للأفضل.. وسعيه للتوافق مع القانون.. فإنه سيشعر بحرية رائعة.. تحرره من سجن ما يفرضه أيُّ إنسان على إنسان بدعوى أنه هو المتحدث بإسم الله ورسوله.. إنَّ هذه الحرية من كل ما نكبل به أنفسنا من إتباع رؤى الآخرين سواء السلف أو المعاصرين هى أول خطوة لبعث الروح..

وبالحرية لا أقصد إستكبارا أو رفضا لرؤى الآخرين.. على العكس تماما فلكم نحن بحاجة إلى التواصى.. والتناصح.. والإستفادة من فكر الجميع.. ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستفيد حقا إلا إذا كان حرا من داخله.. فكره ومشاعره.. ورؤيته لنفسه ولتعاليم دينه..

نحن بحاجة إلى مجهود كبير ليصدق الإنسان أنه حر.. حر..

وحين ينفض عن نفسه غبار وتراكمات مفاهيم كبلته وسلبته هذه الحرية.. فإنه يستطيع أن يبدأ علاقة مع دينه.. لا تخلو من الروح..

نفض الغبار ليس معناه بالضرورة أنَّ المفاهيم الموروثة أو الشائعة خاطئة.. فلسنا بصدد الحكم على أيها صائب أو خطأ.. حين نتحرر أولا يمكننا أن نعرف معا ما نقبله أو لا نقبله..

حين نتحرر من الإحساس بأنّ هناك من فكر لنا ولسنا بحاجة لإعمال العقل.. حين نتحرر من الإحساس بأن هناك حلولا جاهزة ومجهزة يصيغها رجل الدين لنا للحلال والحرام وليس علينا إلا التنفيذ.. حين نتحرر من صورة الإنسان لنفسه بأنه فى علاقته بربه مثل العبد الذليل الذى لا يملك إلا الطاعة مقهورا كارها.. حين نعلم أن العبودية لله هى منتهى الحرية.. ونحاول أن يعلى الإنسان من قدر نفسه لأنه هو خليفة الله على الأرض.. بما أعطاه الله من قدرة العقل.. وبما حمَّل نفسه من الأمانة..

فإننا سنقول هيا معا نقرأ ديننا من جديد.. أى نقرأ أنفسنا.. وواقعنا.. ونحدد ما الذى نحبه ونتعلم القانون..

هل نستطيع؟ التاريخ يقول نعم.. وأفرادٌ صالحون يسعون فى الأرض بالخير والعلم النافع.. وجودهم يقول نعم.. والقانون يقول إن هناك دائما ومضة من نور لم تفارق أرضنا فى أحلك درجات

الظلام.. يستثمرها الصالحون.. فتكبر وتنمو.. وتثمر.. وتزدهر وتبنى حضارات.. ثم ينشغل الناس بما حققوا من ماديات.. ويتلاهوا بينهم عن مصدر النور والضياء.. فيخبو على الأرض.. وينحصر فى أفراد من الصالحين.. يغتربون فى هذا العالم وعن سلطانه.. ومن ضيائهم يجتذب الناس من جديد.. ويطلبون.. وينتشر النور..

وإننى صديقى فى محاولة لتلمس الطريق أملا فى إقامة علاقة حرة.. حية.. متجددة.. مع تعاليم الدين.. وحوار مع النفس حول تفاعلها مع هذه التعاليم.. سيكون لنا بمشيئة الله لقاء وحوار.. متجدد..

عائشة رافع

رقم الإيـداع: ٩١٦١ / ٩٢

الترقيم الدولى: 1 - 01 - 5337 - 977

الجميع بما فيهم علماء المسلمين ومفكروهم يقر بما وصلت إليه الأمة من تخلف.. والجميع يؤكد أيضا ويوقن ويؤمن بأنَّ هذا التخلف ينافى شكلا وموضوعا كل ما جاءت به تعاليم ديننا الحنيف..

إذا كان هناك إجماع على هاتين الحقيقتين فالسؤال هو:

لماذا لم ولا تستفيدُ الأمة الإسلامية من دينها حتى باتت صورتها أمام العالم بهذا التشويه.. وصورة الإسلام بعيدة تماما عن حقيقته وجوهره؟

لماذ تملأ المساجد بالمصلين ولا تخلو الكعبة المشرفة من الطائفين.. ولا نكون كمسلمين على خلق عظيم؟

دار صادق للنشر
ص. ب ١٢٠ سيدى جابر. الإسكندرية